لقاء الشافعي بمالك

سمعت الشافعي، يقول: خرجت من مكة، فلزمت هُذَيْلًا في البادية، أتعلم كلامها وآخذ بِلُغَتها، وكانت أفصح العرب، فأقمت معهم مدة أرحل برحيلهم، وأنزل بنزولهم، فلما أن رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار، وأذكر أيام الناس، فمرَّ بي رجل من الزُّبيريّين، فقال لي: يا أبا عبد الله، عَزَّ عليَّ أن لا تكون في العلم والفقه هذه الفصاحة والبلاغة. قلت: من بقي ممن يُقْصَدُ؟ فقال: مالك بن أنس، سيد المسلمين. قال: فوقع ذلك في قلبي، وعمدت إلى الموطّأ فاسْتَعْرته من رجل بمكة وحفظته، ثم دخلت على والي مكة، فأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك بن أنس. فقدمت المدينة، فبلّغت الكتاب، فلما قرأ والي المدينة الكتابَ، قال: يا بني، أن أمشي من جَوْفِ المدينة إلى جوف مكة حافيًا راجلًا أهون عليَّ من المشي إلى باب مالك، فإني لست أرى الذلَّ حتى أقفَ على بابه. فقلت: إن رأى الأمير أن يوجه إليه ليحضر، فقال: هيهات، ليت أني إن ركبت أنا ومن معي وأصابنا ترابُ العقيق يَقْضِي حاجتنا. فواعدته العَصْر، وقصدنا، فتقدّم رجلٌ وقَرَعَ الباب، فخرجتْ إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك إنَّنِي بالباب. فدخلتْ فأبطأتْ ثم خرجَتْ، فقالت: إنّ مولاي يقول: إن كانت مسألة فارفعها إليّ في رقعة حتى يَخْرُجَ إليكَ الجوابُ، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرفْ. فقال لها: قولي له: إن معي كتاب والي مكة في مُهِمٍّ. فدخلتْ، ثم خرجتْ وفي يدها كرسي، فوضعتْه، فإذا بمالكٍ رجل شيخ طُوَالٌ، قد خرج وعليه المهابة وهو مُتَطَيْلِسٌ. فدفع إليه الوالي الكتاب، فبلغ إلى قوله: إنّ هذا رجل شريفٌ مِنْ أمْرِه وحاله، فتحدِّثه

وتفعل وتصنع. فرمى بالكتاب من يده، وقال: يا سبحان الله، قد صار عِلْمُ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يؤخذ بالوسائل! قال: فرأيت الوالي - وهو يَهَابُه أن يُكلمَه - فَتَقَدَّمت إليه، فقلت: أصلحك الله، إني رجل مُطَّلِبيّ، من حالي وقِصَّتي. فلما أن سَمِعَ كلامي نظر إليَّ ساعة، وكانت لمالك فِراسة، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: محمد. قال: يا محمد، اتَّقِ الله، واجْتَنِبِ المعاصي؛ فإنه سيكون لك شأن من الشَّان. فقلت: نعم وكرامة. فقال: إذَا كان غدٌ تَجِيء ويجيءُ من يقرأ لك الموطأ. فقلت: إني أقرأ ظاهرًا. قال: فغدوت إليه وابتدأت، فَكُلَّمَا تهيبت مالكًا وأردتُ أن أقطع، أعْجَبَه حُسْنُ قراءتي وإعْرَابِي، يقول: يا فَتى زِدْ. حتى قرأته عليه في أيام يسيرة. ثم أقمت بالمدينة إلى أن تَوفِّي مالِكُ بن أنس، -رضي الله عنه-.

المصدر: مناقب الشافعي للبيهقي